الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي-

مخبر الدراسات الاستشراقية الحماية اللغوية و الاجتماعية

بالتعاون مع

مخبر تعليمية اللغة العربية و النص الأدبي في النظام التعليمي الجزائري

- الواقع و المأمول-

الملتقى العلمي الوطني:

صورة الشرق في ضوء الدراسات الاستشراقية

-الحيادية و التجاوز-

ط.د زهية بومجّان

جامعة الجيلالي بونعامة- خميس مليانة-

صورة الأدب العربي الحديث في ضوء الاستشراق المعاصر:الشّعر الحر أنموذجا

الملخص.

تخصَّص المستشرقون في دراسة لغات الشرق، والبحث في دياناته وتاريخه، وعاداته، وعلومه وآدابه، وقد بدأت حركة الاستشراق في القرن الـ 10 ميلادي، حين ترجمت كتب: الفارابي،و الخوارزمي، و الكندي.. و غيرهم. و مضت تقوى حينا، وتضعف حينا آخر، حتى جاء القرن الـ 19 الذي شهد اهتماما خاصا بالاستشراق من الدول الغربية، وعندما بدأ الاستعمار يشق طريقه إلى الشرق، تحولت أهدافه إلى أهداف استعمارية تهدف إلى التسلل للشرق عبر آدابه ولغاته وعلومه من أجل استنزاف خيراته.

إذن فمنذ بدايات الاستشراق، والغرب يهتم بكل ما صدر عن المسلمين، غير أن بعض النقاد، من مثل أحمد سمايلوفيتش، يرى بأنّ الاهتمام الغربي بالأدب العربي القديم كان أكثر مقارنة بالعصر الحديث. والسؤال المطروح: هل، فعلا، أهمل المستشرقون الأدب العربي الحديث في عصرنا الراهن؟ و ما مدى صحة الطرح السابق؟ وإذا كان هذا الطرح غير صحيح بالنسبة لعصرنا الحاضر، سنحاول، قدر الإمكان، توضيح الاهتمام الموجود بأدبنا العربي المعاصر من قبل المستشرقين، وسنركز على جوانب معينة من هذا الاهتمام، هل كان حياديا؟ أم متحيزا و متجاوزا لجوانب معينة من هذا الأدب؟. هذا ما سنحاول مناقشته من منظورنا الخاص في مداخلتنا الموسومة بـ **"صورة الأدب العربي الحديث في ضوء الاستشراق المعاصر**

1. مفاهيم أساسية:

قبل الحديث عن الأدب العربي الحديث و علاقته بحركة الاستشراق، وجب علينا التعريف ببعض المصطلحات النظرية، كمفهوم الاستشراق، لغة واصطلاحا، ودوافعه..حتى نزيل بعض اللبس عن هذا المفهوم الذي ارتبط في مخيالنا العربي بالكفر و الصهيونية و الماسونية..وكل ماهو سلبي ويعادي الإسلام.

1.1 **لغة:** الاستشراق مصطلح أطلق كمقابل عربي للمصطلح الأجنبي **Oreintalisme** في اللغة الفرنسية، و **Oreintalism** في اللغة الإنجليزية، و **Oreintalistik** في اللغة الألمانية، وترجع هذه الترجمات إلى أصل الكلمة **Oreint** التي تعني الشرق.و عندما نبحث عن معنى كلمة **Oreintalisme** في المعاجم الأوروبية، يطالعنا **Larousse** بتعريف مقتضب ينحصر في التعلم أو البحث عن شيء ما. و بالفرنسية **oreinter** تعني: وجّه أو هدى أو أرشد، أما في المعجم الإنجليزي **Webster** فإن **Oreintation** أو **Oreintate** تعني توجيه الحواس نحو اتجاه أو علاقة ما في مجال الأخلاق أو الاجتماع، أو الفكر أو الأدب، أو توجيه الفكر نحو اهتمامات شخصية في المجال الفكري أو الروحي. أما المعجم الألماني **Der duden fremdaworterbuch** فإن كلمة **sichorientieren** تعني جمع معلومات عن شيء ما. (ينظر: المعجم اللغوي الفرنسي larousse ،المعجم الإنجليزي Webster ،المعجم الألمانيDer duden fremdaworterbuch).

ما يلاحظ على الترجمات الأوروبية، أنها تشترك جميعا في ثلاثة أشياء: الثقافة،، العلم، الدين.

أما إذا عدنا إلى المعاجم العربية، نجده مشتقا من مادة (شَ،رَ،قَ)، يقال:شرقت الشمس شرقا و شروقا إذا طلعت (المعجم الوسيط، 1960 م). أما (ا،س،ت) فهي تفيد الطلب إذا سبقت فعلا ثلاثيا ، كما «تعني استأذن طلب الإذن الذي يحتاج، وكذلك استغفر التي تعني طلب الاستغفار » (منظور، لسان العرب، صفحة 2245) ما يلاحظ على هذه الكلمة أنها غير موجودة في المعاجم العربية القديمة، أما التعريفات التي ذكرناها ،سابقا، فإنها تفيد طلب الشرق.

2.1 **اصطلاحا:** مرّ المصطلح بمختلف آراء العلماء الغربيين و العرب، وأخذ مفاهيما اختلفت باختلاف أهداف أصحابها، ومن هذه المفاهيم نورد ما يلي:

- يتساءل **آربري** : ما هو الاستشراق؟ وما كنه المستشرق؟ فيجيب بأنه «من تبحر في لغات الشرق وآدابه » (آ.آربري، 1946،

صفحة 8) بمعنى أن من خرجوا عن حد التعريف السابق لا يمكن تسميتهم مستشرقين.

- ويقول **بارت** :«الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، ولابد لنا أن نفكر في المعنى الذي أطلق عليه.كلمة استشراق المشتقة من كلمة شرق، وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي » (ر.بارت، 1946، الصفحات 7-8). وقد وضح بارت المقصود بالشرق جغرافيا، وأكد على أن الشرق الذي يقصده الاستشراق يحدد جغرافيا بالناحية الجنوبية الشرقية، بالقياس إلى أوروبا، وهذا التحديد للجهات كان بالنسبة للبحر المتوسط، كونه كان يقع وسط العالم، أما بعد انتقال الأحداث السياسية من البحر المتوسط إلى الشمال، و بعد الفتوحات الإسلامية التي اتجهت من شبه الجزيرة العربيةإلى دول الشمال كمصر و شمال إفريقيا، أصبحت هذه الدول ضمن الشرق، ويمتد إلى المغرب. (سمايلوفيتش، 1973)
- و يحاول **رودنسون** تحديد تاريخ الاستشراق، قائلا: « وهكذا ولد الاستشراق وظهرت كلمة مستشرق في اللغة الإنجليزية حوالي عام 1797.. كما دخلت كلمة الاستشراق على معجم الأكاديمية الفرنسية في 1838، وتجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق » (سمايلوفيتش، 1973، صفحة 75). أما أول ظهور لكلمة (مستشرق) فقد ظهرت سنة 1630، عندما أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية(اليونانية).

ما يلاحظ على تعريفات علماء الغرب، الاهتمام بالاستشراق و المستشرق على حد سواء، ليتوصلوا إلى أن تاريخ كلمتي (الاستشراق) و (المستشرق) قد مرَّ بمراحلَ مختلفة منذ عام 1630 ، منذ أُطلق على أحد رِجالات الكنيسة إلى عصرنا الراهن، حيث أصبح يعني التَّبحر و التفقه في لغات الشرق و آدابه، وهو الشرط الرئيسي الذي وضعه **آربري** حتى يصبح الباحث مستشرقا.

أما عن آراء العلماء العرب، فيحسن أن نؤخِّر التعليق عليها بعد أن نورد بعضها:

- يقول **أحمد حسن الزيات** :« يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق و أممه و لغاته و آدابه و علومه، وعاداته و معتقداته و أساطيره، ولكنه في العصور الوسطى كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم. » (الزيات، صفحة 512)

- يعرِّف **أحمد الشرباصي** المستشرقين بأنهم: « قوم من أوروبا، نسبوا أنفسهم إلى العلم و البحث(...) ولكل منهم لغته الأصلية(...) ولكنه مع ذلك تعلم اللغة العربيةبجوار لغته الأصلية. » (الشرباصي، 1966، صفحة 27)
- أما **ابراهيم عبد المجيد اللبان** ، فنجده يعرف المستشرقين تعريفا آخر، يقول: « المستشرقون اسم واسع يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، فهم يدرسون العلوم و الآداب الخاصة بالهند و الفرس و الصين و اليابان و العالم العربي و غيرهم من أمم الشرق.» (اللبان، 1940، الصفحات 4-5).
- يأخذ **حسين الهراوي** اتجاها آخر في تعريفه للاستشراق، فهو يرى بأنه « مهنة و حرفة كالطب و الهندسة و المحاماة، هو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير » (سمايلوفيتش، 1973، صفحة 29).
- يقترب مالك بن نبي من التعريف السابق، حيث صنف ،هذا الأخير، المستشرقين إلى صنفين:

أ - **من حيث الزمن:** طبقة القدماء(جرير دورييك و القديس توما الأكويني)، وطبقة المحدثين(كارادوفو و جولد سيهر).

ب - **من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام و المسلمين في كتاباتهم:** فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها. (بن نبي، 1969)

ما يلاحظ على آراء العرب هو أنهم اختلفوا، كل حسب ثقافته و اعتقاداته، فنلاحظ أن أحمد الشرباصي و ابراهيم عبد المجيد اللبان، عالجا الاستشراق من منظور اللغة، فالأول حصر دراساتهم في اللغة العربية، في حين وسع الثاني مجال دراستهم و انتمائهم إلى غير أوروبا، وتمكنهم من لغات مختلفة، أما بالنسبة لحسين الهراوي و مالك بن نبي، فلقد ارتبطت نظرتهما للاستشراق بالدين، بخلاف الشرباصي واللبان التي ارتبطت بالعلوم.

بعد عرضنا لآراء الغرب و العرب، علينا أن نشير إلى بعض النتائج المتوصل إليها فيما يخص مفهومي الاستشراق و المستشرق:

- اتفق العلماء على أن الاستشراق قد أصبح علما مستقلا، يهتم بدراسة الشرق و حضارته.
- قرر العلماء أن المستشرق لابد له من معرفة كاملة بإحدى اللغات الشرقية و آدابها.

- اتهم بعض علماء العرب علم الاستشراق و أصحابه صراحة بالتطرف و التعصب، بسبب صلته الوثيقة بالتبشير و مهمته في خدمة هذا الأخير
- أشار الجميع إلى الدّور الكبير الذي أدّاه الاستشراق في تعريف الغرب بحضارات الشرق عامة، وحضارة الإسلام و آداب العرب خاصة، و أثرهما العظيم في الغرب نفسه و نهضته العلمية و الفكرية على حد سواء. (سمايلوفيتش، 1973)

2. دوافع الاستشراق:

لا يمكننا الحديث عن الاستشراق و الحكم عليه دون أن نذكر الدوافع التي أدت إلى اهتمام الغرب بالشرق و عنايته به، خاصة بعد شيوع الإسلام ودوره الفعال في توجيه الإنسان نحو العقيدة السمحاء.

يبدو للباحث من أول وهلة أن للاستشراق ثلاثة دوافع رئيسية، ولكن يرى بعض الباحثين، في هذا المجال، أن له سبعة دوافع هي: نفسية، تاريخية، اقتصادية، إيديولوجية، ودينية، واستعمارية، وعلمية، بالإضافة إلى بعض الدوافع الثانوية، يرجعها البعض إلى « أسباب شخصية مزاجية عند بعض الذين تهيأ لهم الفراغ و المال و اتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة في السفر و الترحال أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم، ويبدو كذلك أن فريقا من الناس دخلوا ميدان الاستشراق طلبا للرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية، أو دخلوه عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى، أو دخلوه تخلصا من مسؤولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية » (البهي، الصفحات 533-534). في حين يرى آخرون بأن «دوافع « المستشرق » إلى هذا الدخول الجريء المستشبع و ركوب هذا المركب الوعر، كانت ضرورة تحمله على أن يخدم أبناء جلدته و عشيرته و أهل ملته » (شاكر، 1997، صفحة 70) ولعل هذه الضرورة أوجبها الصراع المحتدم قرونا بين الإسلام و المسيحية.

1.2 الدوافع النفسية: يقصد بها ما يكمن في طبيعة الإنسان من حيث هو كائن حي، ومخلوق يفكر، له آماله و آلامه، وأطماعه و أهدافه، ورغباته و نزواته، مع بعد فكري يميزه عن بقية الكائنات الحية، ولعل الأهم من هذا، كلّه، البحث في عقيدة الآخرين للتأكد من سلامة عقيدته...ويبقى الدافع الأقوى هو البحث عن الحقيقة والفرار من الجهل، ولتحقيق هذه الرغبات قام المستشرق برحلات عبر الأراضي و البحار، فكان لهذه الرحلات «أثر بالغ في تاريخ الاستشراق ودور لا يستهان به في إيقاظ الرغبة في مشاهدة تلك البلاد ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها و حضارتها » (حثيثو، 1966، صفحة 44) ولما انتشر الإسلام، قضى على الجهل و نشأت

حضارة إسلامية قوية أثارت فضول الآخر، فعكف على البحث في تراثهم و أخذ يشتغل ليلا نهارا ليحدد مكامن قوتها، فبدأت تنتشر في الأوساط الغربية معلومات صادقة و غامضة عن الشرق.

ما نلاحظه أن الدوافع النفسية كانت مهمة جدا بالنسبة لانطلاق علم الاستشراق، وكان لها أثرا كبيرا في اتجاهاته.

2.2 الدوافع الدينية: لقد ذكرنا في العنصر السابق أن الرغبة في الاطلاع هي من الدوافع النفسية التي شجعت المستشرق على البحث في عالم الشرق، ومن هذه الرغبات ذكرنا رغبة البحث في عقيدة الآخرين، هذه الأخيرة التي تحث صاحبها، على الدوام، لطلب العلم و التقصي عن الحقيقة .

عندما شاع الإسلام، بلغ من الرقي ما لم تبلغه أية حضارة أخرى، فبدأ الناس يتوافدون إلى مراكزه و معاهده لطلب العلم، ومن أمثالهم: **جرير و سكوت و بيكون** و غيرهم « جاء بعضهم ليستفيد ثم يفيد، و الآخر ليتعلم، ثم ليحارب و يهدم » (سمايلوفيتش، 1973، صفحة 48) وبناء على ذلك أجبر الآخر على دراسة الإسلام و لغته و آدابه، وظلت اللغة العربية لفترة طويلة هي لغة العلم و السبيل الأوحد لفهم الكتب السماوية، ولهذا السبب أنشئت في الغرب المعاهد و المدارس لتعليم اللغات الشرقية، ولعل الفضل في ذلك يرجع للمرسلين المبشرين.

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن: **هل يرجع اهتمام المستشرقين باللغة العربية للسبب الديني فقط؟** أم هناك أسباب أخرى.

ومما لا شك فيه أننا ذكرنا جزءا من الجواب،سابقا، حينما تحدثنا عن طلب العلم،لأن اللغة العربة أصبحت لغة العلم و الفلسفة و لابد من تعلمها، هذا عن السبب الظاهر أما السبب المضمر فهو « منع انتشار الإسلام الذي بدأ يزحف على المعاقل المسيحية و يطرق أبوابها. من هنا فكرت البابوية في روما مواجهة هذا الزحف بالتبشير المضاد بالمسيحية في البلاد الإسلامية نفسها » (سمايلوفيتش، 1973، صفحة 49). من هنا نخلص إلى أن الدوافع الدينية كانت من أهم الدوافع لحركة الاستشراق خاصة بعد الخراب الذي تركته الحروب الصليبية في نفوس الأوروبيين، ما أدى إلى الحاجة الملحة إل الإصلاح الديني عن طريق التبشير و من ثم الاستشراق.

3.2 الدوافع العلمية: بعد سيادة الحكم الإسلامي على العالم، أيقن الغرب ضرورة النهضة ، و أنها لن تتحقق إلا بالعلم الذي قامت به الحضارة الإسلامية، فانكبوا على دراسة لغات الشرق و آدابها و حضارتها و خصوصا حضارة الإسلام.فأقبل المستشرقون على هذه الدراسات بنهم و شغف. ولعل «الباعث على دراسة اللغات الشرقية في

أول الأمر كان دينيا و حربيا في القرون الوسطى، ثم تحول بعد ذلك إلى أغراض علمية هدفها كشف ما تكنه العلوم و الفنون الشرقية من كنوز ثمينة » (جيرا، 1929، صفحة 52)، وبفضل هذه الدراسات توطدت العلاقة بين الشرق و الغرب، وكان الفضل لعلوم الاستشراق في الاعتراف بأسبقية العرب إلى العلوم و فضلها على المدنية الأوروبية. «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه يدين لها بوجوده نفسه » (عاشور، 1963، صفحة 128)، فالثقافة العربية هي سبب نشوء هذه الحركة.

و من مظاهر نشاط المستشرقين:

- إنشاء الجمعيات الآسيوية و المعاهد الشرقية لتعليم اللغات الشرقيةو إعداد المستشرقين.
- عقد المؤتمرات في المدن الكبرى في العالم كل ثلاث سنوات، وفيها يلتقي المستشرقون مع علماء الشرق ليتابعوا الجديد في مجال الدراسات الشرقية .
- تحقيق بعض المخطوطات العربية و ترجمة بعض إبداعات العرب، نخص بالذكر: العالم الإنجليزي (روجر بيكون) الذي دعا الناس إلى دراسة العلوم الرياضية و الطبيعية ولقد كان له أثرا عظيما في قيام النهضة العلمية بأوروبا.

لقد لاحظنا أن هذه الدوافع تميزت ،ظاهريا، بطابع علمي بحت، ولكن كيف نفسر الطابع الغالب على حركة الاستشراق، و المتمثل في الانتقاء؟. كيف نفسر التحيز لجوانب معينة من الظواهر الثقافية الشرقية عموما و الأدب العربي بالأخص؟ ما هي الاعتبارات أو المبادئ التي تم وفقها هذا الانتقاء؟

كان واجبا علينا أن نقدم ببعض المفاهيم الأساسية لحركة الاستشراق و دوافعه حتى نتمكن من الإجابة عن إشكاليتنا المطروحة سابقا، ألا و هي: كيف تم التركيز على جوانب معينة من أدبنا العربي الحديث في ضوء الاستشراق المعاصر.

3. علاقة الاستشراق بالأدب العربي.

مثل الأدب بشقيه (شعرا ونثرا) مركزا رئيسيا في الأمة العربية، التي أثرت بدورها في مختلف الحضارات، وهذا ما يزيده اهتماما في الفكر العالمي عامة و الفكر الأوروبي خاصة.إذا كانت أعظم مآثر الحضارة العربية في الحقل الروحي قد أفرغت في اللغة، فإن أسمى منجزاتها، بعد القرآن، كان هو الشعر في نظر العرب. (سمايلوفيتش، 1973)، وبالتالي فليس غريبا أن تدور جل بحوث الاستشراق حول هذا

الأدب.و« ظلّ الأدب العربي بشعره ونثره من الأمور التي شغف بها الاستشراق محاولا الوصول إلى معرفة العرب واتجاهاتهم » (سمايلوفيتش، 1973، صفحة 102) و كل ذلك كان لدوافع مسبقة.وهكذا انهالت أبحاث المستشرقين على الأدب القديم، فقلما نجد مستشرقا لم يبحث في الأدب الجاهلي، من أمثال: **نولدكه، بروكلمان،و بلاشير، مرجليوث، ليال، دلافيدا** ..ومما لا شك فيه أن هؤلاء انقسموا إلى قسمين:

القسم الأول : نولدكه وبروكلمان و بلاشير، اعتنوا هؤلاء بهذا الأدب عناية فائقة.

القسم الثاني: مرجليوث، ليال و دلافيدا، أنكر هؤلاء أصالة هذا الأدب، على الرغم من اجتهادهم و مثابرتهم في البحث.

من المؤكد أن الاهتمام بالأدب العربي القديم لدى المستشرقين يحتاج إلى بحث أطول و أعمق من هذه الكلمات.

1.3. اهتمامه بالأدب العربي الحديث:

بداية الحديث عن اهتمام المستشرقين بالأدب العربي الحديث، تحدث تساؤلات بين الدارسين، على قلة الاهتمام الغربي بالأدب العربي الحديث مقارنة بالأدب العربي القديم، ويرجع ذلك لأسباب ذكرها **سمايلوفيتش** كالآتي:

- بحوث المستشرقين في هذا الميدان حديثة العهد، ولم تتبلور فكريا أو منهجيا أو فلسفيا.
- الأدب العربي الحديث لم يفرض نفسه بعد على هيئات العلم العالمية، وإن خطا خطوات جبارة نحو ذلك.
- العدوان الاستعماري الذي لم يزل مستمرا و خاصة في ميادين الفكر و الثقافة و الأدب .
- مراكز الاستشراق نفسها لا تحفز طلابها على البحث في الأدب الحديث بل تفرض عليهم البحث في روائع الأدب العربي القديم. (سمايلوفيتش، 1973، صفحة 509)

بالإضافة إلى هذه الأسباب نحن نرى بأن سببا آخر أدى إلى قلة هذا الاهتمام، يرجع إلى الغرب الذي وجه جل اهتمامه إلى غير الأدب من مختلف مظاهر الحياة العربية المعاصرة. ولكن المتتبع للدراسات الغربية المهتمة بالأدب العربي الحديث، يجد أن اهتمام المستشرقين بهذا الأدب بدأ يتزايد و هو في نشاط مستمر من خلال الندوات و المؤتمرات التي تعقد في الجامعات الغربية، وتأكيدا لذلك سنذكر بعض هذه الدراسات:

- ندوة بعنوان: فهم العالم العربي من خلال الأدب، أقيمت بجامعة جورج تاون بمدينة واشنطن، عقدت في 1995/04/04 م.

- مداخلة ل **صباح غندور** بعنوان: الكاتبات العربيات و أصواتهن الأنثوية.
- مداخلة **لأميرة الزين** بعنوان: الأدب الشعبي الإسلامي(ألف ليلة و ليلة).
- مداخلة **لعنا بشناق** بعنوان: الادب الشعبي العربي(الفولكلور العربي).
- المؤتمر الدولي الرابع للآداب المقارنة، عقد بالقاهرة في ديسمبر 1996 م، وشاركت فيه منى ميخائيل من قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة نيويورك. (ملفوف، 2016)

كما تحتفظ الجامعات الغربية بالرسائل الجامعية التي تهتم بالأدب العربي الحديث، ومن هذه الرسائل نذكر مثالا لا حصرا:

- الموضوع و الشكل في أعمال توفيق الحكيم، أعدها **ستاركي** سنة 1970 م في جامعة أكسفورد.
- يحيى حقي: مثقف مصري بين المثال و الواقع،أعدها **كوك** في جامعة أكسفورد سنة 1970 .
- نجمة و الجزائر في كتابات كاتب ياسين(نحو هوية قومية)، أعدَّها **صالحي** في جامعة إكستر سنة 1991 م. (ملفوف، 2016)
- ...

يمكننا القول،مما سبق، أن اهتمام الاستشراق بالأدب العربي الحديث يزداد كل يوم عمقا و فلسفة و شمولا.

2.3. قضايا الأدب العربي الحديث التي اهتم بها الاستشراق:

منذ بداية الاستشراق و الغرب يهتم بكل ما صدر عن المسلمين، ولكنه اهتم ببعض القضايا و عنى بها عناية خاصة ،على غيرها من القضايا الأخرى، فوقع الاختيار على بعض الدراسات و الأعلام، بعينهم، ووجه المستشرقون اهتمامهم صوب العرب ممن يكتبون أدبا في اللغات الأوروبية و كان تمدرسهم غربيا، من مثل: **طه حسين، محمد حسين هيكل، كاتب ياسين، مولود معمري،بن جلون** ..وهؤلاء من قال فيهم **عبد الله الركيبي** :«أما أولئك " المرضي عنهم" فهم الذين يعيشون عصرهم و يستحقون التكريم و التنويه بإنتاجهم، نلمس هذا في الضجة التي أثاروها حول ما كتبه الطاهر بن جلون الذي صرح بان الفرنسية هي التي تعبرعنه و عن إحساسه، فانهالت عليه الجوائز الأدبية... » (الركيبي، 1993، صفحة 94).في حين لا نجد ذكرا لأسماء أخرى، من مثل: مالك حداد الذي قال: la langue francaise est mon exil .

من القضايا التي أثارها المستشرقون قضية "اللغة" و استخدام الكاتب للهجة العامية، أو اللغة الثالثة أو الوسطى كما يسميها البعض، وتأكيدا لذلك الاهتمام نذكر بعض الدراسات و الكتب الغربية حول اللّهجات الشرقية:

- مرجع في قواعد اللغة العربية السورية تأليف **مارك كوول Mark cowell** .
- مرجع موجز لقواعد العربية المغربية من تأليف **ريتشارد هارل Richard Harrel** ، و هو مرجع عملي للطالب الي حصل على مبادئ اللغة العربية.
- قاموس العربية العراقية (عربي-إنجليزي) من تحرير **وودهيد Woodhead وواين دين Wayne Deene**، وآخر(إنجليزي-عربي) تحرير **كلاريتي Clarity و كارل ستوواسر Carl Stowasser و رونالد وولف Ronald Wolf.** (ملفوف، 2016).

يؤكد ما طرحناه، سابقا، أن اهتمام الاستشراق ظل منصبًّا على جوانب معينة و قضايا بعينها من أدبنا العربي. وربما هذه القضايا لا تحتاج إلى هذه الضجة، كما رد **بيرك** عن قضية اللغة حين قال: «اللغة العربية قادرة على مواجهة كل التحديات و أنها لا تحتاج إلى «لغة ثالثة » أو «لغة متوسطة » أو «لغة عامية » » (شاكر، 1997، صفحة 67)، وإنما تحتاج إلى الوعي اللغوي و التاريخي و الحضاري بها لدى جماهيرها.

أ - الشعر الحر و إشكالية المصطلح.

هو مصطلح نقدي غربي، أول ما أطلق عام 1885 م من طرف الناقد الفرنسي كرافن على شعر الشاعر(جويس)،بقوله: «هذا شعر حر »و قد شاع بعد ذلك هذا الشكل في فرنسا، ثم في إنجلترا، و يسمى باللغة الفرنسية(Vers libre) و بالإنجليزية (Pres vers) و يعني التحرر التام من الوزن و القافية. (الورقي، 1983)

من أشهر شعراء هذا الاتجاه في الغرب: عزرا باوند Ezra.Pound، و ت.س.إليوتT.S.Eliot و في أمريكا والت ويتمان Walt Whitman .

أما مصطلح الشعر الحر في النقد العربي المعاصر،فنحن نرى بأن هذه التسمية خاطئة، أخذتها نازك الملائكة، و أطلقتها على نص شعري إبداعي عربي يعتمد على(الوزن) عنصرا أساسيا، ولكنّه يتحرر إلى حد ما من (القافية) ، فهو يتخلص من نظام الشطر التقليدي، و يتبنى نظام السّطر، ويقترح له تسمية نقدية تعبّر عنه، وهي "**شعر التفعيلة**".

أما ريّادة هذا الضرب من الشعر الحر(شعر التفعيلة) في العالم العربي، فهي عراقية، و تعود عند جل النقاد إلى: **بدر شاكر السياب** ، ويشاركه هذه الريادة : **نازك الملائكة و بلند الحيدري** . ثم تهافت الشعراء العرب على هذا الشعر، وظهرت أصوات تنادي بالحداثة و تردد مقولاتها الغربية، من أمثال: **يوسف الخال العائد من أمريكا، أدونيس القادم من سوريا، سعدي يوسف، ألبير أديب،ابراهيم شكر الله،ميشال طرّاد، بدوي الجبل(عمودي -حداثي)، فؤاد رفقة،فدوى طوقان،نذير العظمة،موسى النقدي** ...ولا تزال القائمة طويلة، ومن هؤلاء نجد شعراء و منظّرين، كأدونيس و يوسف الخال.

إذا حاولنا التعليق على ما ذكرناه، سابقا، فيمكننا القول بأن الحداثة انقسمت إلى حداثتين:

الحداثة الأولى : و هي حداثة حقيقية،حداثة بدر شاكر السياب و نازك و عبد الوهاب البياتي

والحداثة الثانية: وهي حداثة الانفصام و القطيعة، والتي ظلت منعزلة عن المجتمع ، وانحصرت داخل أعضائها ،فقط،وهي حداثة أدونيس و أتباعه، وسنترك التعليق على هذا النوع من الحداثة، لما سيأتي في العنصر الموالي من اهتمام المستشرقين بهؤلاء الحداثيين،وهذا ما سيؤكد رأينا.

ب -الشعر الحر من منظور الاستشراق.

من القضايا الحديثة التي اهتم بها الاستشراق، ما اصطلح على تسميته بالشعر الحر، هذا الوافد الغربي الذي استقبلناه استقبال الظامئ المحترق لقطرات من الماء النّمير المثلج ،على حد قول الشيخ محمود شاكر، و صار ظاهرة مألوفة، راسخة، لاغبار عليها ، ومما زادها رسوخا إثارة قضايا نقدية خطيرة ، كقضية (القديم و الجديد) و(الأصالة و المعاصرة) و(التراث و الحداثة)...مما أدى إلى رفض القديم دون تقديم مبررات ، أو أن يكون الرافض ملما بهذا القديم و الميل إلى الجِدة و التجديد، دون أن يكون واعيا بهذا التجديد،فأصبح هؤلاء المجددين مركز اهتمام المسشرقين «وهذا مما يدل على اهتمام الاستشراق البالغ بهذين الاتجاهين الرئيسين(الشعر المرسل و الشعر الحر) في الشعر العربي المعاصر » (سمايلوفيتش، 1973، صفحة 538) و بالتالي كان الشعر الحر مركز اهتمام المستشرقين.

و الدارس المتتبع لهذه الدراسات، يجد اهتماما بالغا من قبل المستشرقين ببعض الأسماء الشعرية العربية من أمثال: «أدونيس(علي أحمد سعيد) و بدر شاكر السياب و عبد الوهاب البياتي و محمود درويش و صلاح عبد الصبور »

(الطعمة، 1981، صفحة 10)، لقد تعجب الكثير من النقاد و الدارسين من هذا الانتقاء **!** و على أي أساس تم هذا الانتقاء **!** فنجد **جهاد فاضل** يتعجب من كثرة الترجمات لشعر أدونيس إلى اللغات الاوروبية، يقول: « فالحاجة ماسة أولا إلى ترجمة شعره إلى اللغة العربية قبل ترجمته إلى اللغات الأجنبية لاستعصائه على النخبة المثقفة، كأنه يتقصد و هو يكتب شعره ألا يفهمه أحد من القراء » (فاضل، 1997)و يضيف قائلا: « إذ لا ينقضي شهر من الشهور إلا و يصدر"إعلان" أو خبر في الصحفات الثقافية يحمل إلى القراء العرب بشرى ترجمة ديوانه هذا أو ذاك إلى اللغة الفلانية، كأن أدونيس يقول لهؤلاء: إذا كنتم رفضتموني فقد قبلني العالم،انظروا إلى تهافت العالم على قراءة شعري » (فاضل، 1997)و يبقى السؤال المطروح : **لماذا هذا التجاهل للكثير من الإبداعات العربية؟** و لماذا تتركز الترجمة على أعمال أدباء، بعينهم، من أمثال: **نجيب محفوظ، أدونيس، وكتاب اللغة الفرنسية بالجزائر،من مثل: مولود معمري، كاتب ياسين، الطاهر جاووت و حاليا واسيني الأعرج و رشيد بوجدرة** و لا تزال القائمة طويلة...

لعل السبب وراء هذا الانتقاء، ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر، **أدونيس** الذي بلغ الاهتمام به من قبل المستشرقين حدّ ترشيحه لنيل جائزة نوبل للآداب، بعد نيل نجيب محفوظ لها، يرجع إلى موقف تأييده للتطبيع و السلام مع إسرائيل في المؤتمر الذي أقامته اليونسكو في غرناطة تحت عنوان(ما بعد السلام) ،ومن مواقف أدونيس الخطيرة ضد الإسلام ما ورد في تجربته الشعرية، حيث تبنى **فكرة الانتهاك** بشكل طاغ على جميع المستويات، و بخاصة انتهاك الثوابت، وأخطرها انتهاك المقدس.

يقول ف يقصيدة بعنوان:"حوار"

-« من أنتَ، من تختارْ يا مهيار؟
أنّى اتّجهتَ، اللهُ أو هاويةُ الشيطان
هاويةٌ تذهب أو هاويةٌ تجيء
و العالمُ اختيارْ»

...

- «لا اللهَ أختار و لا الشَّيطانْ
كِلاهما جدارْ
كلاهما يغلق لي عينيْ
هل أبدّل الجدار بالجدارْ
و حيرتِي حِيرةُ من يُضيء
حيرةُ من يَعْرفُ كلَّ شَيء...» (أدونيس، 1996)

نذكر من هؤلاء الحداثيين ،أيضا، والذين نالوا حظا من اهتمام حركة الاستشراق؛ **محمود درويش** ، هذا الشاعر الذي ذاع سيطه عربيا وغربيا في

المؤتمرات و الندوات التي تعقد في الجامعات الغربية، و التي تزعم الحديث عن الانفتاح الشعري و التلاقح الحضاري، فنجد المتحدث **ساسون سوميخ** ؛أستاذ الأدب العربي ورئيس معهد اللغات بجامعة تل أبيب، في محاضرة له بمؤتمر عقد في (بودابست) حول الأدب العربي، يذكر أسماء شعراء عرب جددوا في لغة الشعر الحديث، من مثل: **محمود درويش، صلاح عبد الصبور و مظفر النواب** ... (المطبقاني، 2000)

و إذا تساءلنا، مرة أخرى، عن سبب الانتقاء سنجد السبب وراء هذا الذيوع يرجع للقيم و المبادئ و الرموز النصرانية التي جاءت في شعر درويش، وتأكيدا لكلامنا، نذكر البعض من أشعاره:

يقول في قصيدة بعنوان: قراءة في وجه حبيبتي

و أقرأ لائحة الأنبياء

وسفر الرضا و الرذيلة..

أرى الأرض تلعب

فوق رمال السماء (جابري، 2014)

ويقول في أخرى، حينما يستدعي رمز **"العذراء"**:

سألتُكِ هَزّي بِأجمَلِ كفٍّ عَلى الأرضِ

غصْنُ الزّمَان!

لتسقطَ أوراقَ ماضٍ و حاضرٍ

ويُولدُ في لمحةٍ توْأمَانِ:

ملاكْ..وشاعرْ! (درويش، ديوان محمود درويش، د.ت)

بالإضافة إلى نماذج من الأسفار التَّوراتية، وسنأخذ مثالا على سفر "الجامعة":

مَنْ أنَا؟

أنشيدُ الأناشيدِ

أمْ حكمة الجامعة؟

و كلانا أنا...

وأناَ شاعرْ

وَملكْ

وحكيم على حافة البئرْ (درويش، جدارية محمود درويش، 2000)

يقول **خالد قشطيني** :«هذه التفاتة مقبولة لو أنها كانت ترمي إلى تجسيم التلاحم بين المسيحيين و المسلمين في عالمنا العربي، و إظهار أن التراث المسيحي هو أيضا جزء من تراثنا العربي، بيد أن الغرض ليس كما يبدو لي، الغرض هو الظهور بالتفرنج و الاستغراب والعصرنة » (قشطيني، 1995) و يتمم قوله بهذا شيء مقيت.

كذلك إذا عدنا إلى كُتَّاب الجزائر، نجد انتشارا واسعا لكتابات **واسيني الأعرج** ،فالمتتبع لأعماله، يجده يجسد لمشروع **التسامح الحضاري** من خلال شخصياته الورقية التي ترسم العلاقة الحضارية بي الشخصية المسلمة و غير المسلمة كاليهودية أو المسيحية، مثل شخصيتي الأمير و ديبوش في كتابه "الأمير" ، واللافت في روايات واسيني هو شخصية **مريم** التي أصبحت كلازمة في جميع أعماله، وشكلت رمزا سيميائيا يكون مدلوله كالحرباء التي تبدل ألوانها في كل مرة، وينتهي إلى مدلول واحد وهو تمثيله للآخر النصراني.

أما عن **رشيد بوجدرة** ، فيكفي أنه صرح بإلحاده و تطاوله عن الديانة الإسلامية، و اعترافه بحبه للغة الفرنسية.و إذا غاب عنا سبب ارتفاع ترجمة "نجمة" **لكاتب ياسين** لأكثر من لغة عالمية، سيسهل علينا، بالتأكيد، معرفة سبب تجاهل كاتب عظيم **كمالك حداد** لمجرّد قوله: La langue francaise est mon exil .

نتائج و توصيات.

- لقد حاولنا في بحثنا التطرق لعينة من اهتمام الاستشراق المعاصر بالأدب العربي الحديث، فكان التركيز على **الشعر الحر** ، هذا الأخير الذي شغل اهتمامات المستشرقين فكان حاضرا من خلال الندوات و المؤتمرات في الجامعات الأوروبية، و كذلك في المذكرات و البحوث الأكاديمية، ما استخلصناه من الصفحات الماضية هو تفنيد النظرة السابقة التي كانت تقول بقلة الاهتمام بالأدب العربي الحديث من قبل المستشرقين، وأكدنا على ذلك بذكر الدراسات التي اهتمت بهذا الأدب و التي لا تزال مستمرة و متزايدة إلى يومنا هذا.
- لقد حاولنا قدر الإمكان أن نوضح المبدأ الذي تم اعتماده من قبل المستشرقين في الاهتمام بجوانب معينة من أدبنا الحديث، و خلصنا إلى أن السبب الرئيس يرجع إلى انتقاء الأعمال حسب المضامين و المبادئ و القيم و الأخلاق التي تحتويها ،و إلا كيف نفسر الاهتمام **بمحمود درويش** عندما يتحدث عن الرموز النصرانية ؟ **وجورجي زيدان** عندما **يشوه تاريخ الرواية العربية الإسلامية؟** .لقد كان التطاول على الإسلام السبب المضمر و الحقيقي لهذا الانتقاء.
- بالرغم من السلبيات التي قد نراها في حركة الاستشراق، إلا أن التعامل الموضوعي – في آراء الباحثين- مطلب علمي واجب، فيجب علينا التخلص من القيود و التحرر الفكري و نحن نكتب عن الشرق و الاستشراق، لان هذه الحركة قدمت الكثير لخدمة أدب الشرق،و كما ذكرنا –في المتن- قضية التسامح الحضاري بين الحضارات و التي يعد الاستشراق الخلفية الفكرية لها.
- والآن لم يبق إلا أن نجمل ما قلناه سابقا في توصية الباحثين و الأكاديميين بتفعيل هكذا ندوات و ملتقيات من أجل التخلص من نموذج "المثقف المدرسي" الذي تنتجه مدارسنا..هذا الأخير الذي عمل الاستشراق على هتك العلائق بينه و بين ماضيه و أفرغه تفريغا كليا منه، في الوقت،نفسه، ملأ فراغه بالعلوم و الآداب و الفنون، و لكنها علوم المستشرق ، و آدابه و تاريخه و لغاته.
- تفريغ الأجيال من ماضيها مرتبطا بالعربية و الإسلام،كما فصلنا في ذلك في متن المداخلة، وهذه هي غاية الاستشراق،ولكن ما هو الحل لبناء جيل واع بماضيه؟ . لا يوجد حل غير العمل على إنشاء جيل مدرسي جديد واع بماضيه..جيلٌ يدرس الآداب و العلوم و التاريخ و اللغات، ولكّنها علومهُ هو، و آدابه هو، وتاريخه و لغاته...

قائمة المراجع و المصادر.

1. آ.آربري. (1946). *المستشرقون البريطانيون*. (محمد الدسوقي النويهي، المترجمون) لندن: مطبعة ويليام كولينز.
2. إبراهيم عبد المجيد اللبان. (1940). *المستشرقون و الإسلام*. مجمع البحوث الإسلامية.
3. ابن منظور. *لسان العرب*.
4. أحمد الشرباصي. (1966). *التصوف عند المستشرقين* (الإصدار مطبعة نور الأمل). سلسلة الثقافة الإسلامية.
5. أحمد حسن الزيات. *تاريخ الأدب العربي* (الإصدار 25).
6. أحمد سمايلوفيتش. (1973). *فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر*. مصر: دار المعارف.
7. أدونيس. (1996). *الأعمال الشعرية أغاني مهيار الدمشقي و قصائد أخرى*. سوريا، بيروت: دار المدى للثقافة و النشر.
8. السعيد الورقي. (1983). *لغة الشعر العربي الحديث (مقوماتها الفنية و طاقاتها الإبداعية)* (الإصدار 02). الإسكندرية، مصر: دار المعارف.
9. *المعجم الوسيط*. (1960 م). القاهرة: مجمع اللغة العربية.
10. جهاد فاضل. (1997). مقارنة بين نزار قباني و أدونيس. *مجلة الرياض* (10477).
11. خالد قشطيني. (1995). موت الشعر. *مجلة الشرق الأوسط* (5902).
12. ر.بارت. (1946). *الدراسات العربية و الإسلامية في الجامعات الألمانية*. (محمد الدسوقي النويهي، المترجمون) لندن: مطبعة ويليام كولينز.
13. سارة حسين جابري. (2014). *أعذب قصائد محمود درويش*. إصدارات دار العوادي.
14. سعيد عبد الفتاح عاشور. (1963). *المدنية الإسلامية و أثرها في الحذارة الأوروبية*. دار النهضة المصرية.

15. صالح جواد الطعمة. (1981). *الشعر العربي الحديث مترجما*. الرياض: النادي الأدبي.

16. صلاح الدين ملفوف. (2016). *الأدب العربي الحديث من منظور الاستشراق المعاصر*. نور للنشر.

17. عبد الله الركيبي. (1993). *الفرنكفونية: مشرقا و مغربا*. الجزائر: دار الأمة.

18. مازن بن صلاح المطبقاني. (2000). *الاستشراق المعاصر في منظور الإسلام* (الإصدار 01). دار إشبيليا للنشر و التوزيع.

19. مالك بن نبي. (1969). *إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث* (الإصدار 01). بيروت: دار الإرشاد.

20. محمد البهي. *الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي*. بيروت: دار الفكر.

21. محمد علي حثيثو. (1966). ورقة من تاريخ الاستشراق الألماني. *مجلة فكر و فن* (العدد الثامن).

22. محمود درويش. (2000). *جدارية محمود درويش* (الإصدار ط1). بيروت: رياض الريس للكتب و النشر.

23. محمود درويش. *ديوان محمود درويش*.

24. محمود درويش. (د.ت). *ديوان محمود درويش* (الإصدار د.ط). بيروت: دار العودة.

25. محمود محمد شاكر. (1997). *رسالة في الطريق إلى ثقافتنا*. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

26. *ينظر: المعجم اللغوي الفرنسي larousse ،المعجم الإنجليزي Webster ،المعجم الألمانيDer duden fremdaworterbuch*.

27. يوسف جيرا. (1929). *تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا*. مطبعة الشباب.